المقومات الأساسية لحوار الحضارات في فلسفة روجية غارودي
– قراءة في كتابه: في سبيل حوار الحضارات–

أ. طرواية عمر
جامعة تلمسان

أ. مسعي عفاف
جامعة قسنطينة2

الجزائر

تمهيد نظري:

لقد شغلت مسألة "حوار الحضارات" بال العديد من الباحثين والمفكرين والفلاسفة، بل حتى رجال الدين، وباتت من أهم المسائل الرئيسة ضمن مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية. وبالرغم إن تناولها كان تناولا قديما عبر مراحل تطور الفكر البشري، إلاّ أن فترة تسعينيات القرن العشرين اتّخذت منحى جديدا وتوسعت دائرة المناقشة والتحليل فيها بشكل مغاير من حيث المبادئ والأهداف. فمن الفيلسوف الألماني(آلبرت شفايتزر 1875–1965)، ومرورا بالفيلسوف والعالم السياسي الأمريكي(صموئيل هنتغتون1927–2008)، وصولا إلى الفيلسوف الفرنسي(روجيه غارودي1913–2012)*،...، هاته الشخصيات الثلاثة وغيرهم قد أحدثوا ضجة فكرية على مستوى العالم الغربي والعالمي ككل حول نظرتهم الجديدة لفلسفة الحضارة ومقولاتها: الثقافة، الحوار، التسامح، التعايش، المسألة الدينية والأخلاقية...الخ، وخاصة نظرتهم حول المسلمة التي تقوم عليها فكرة "حوار الحضارات" ومفادها: **أنه لا معنى لحوار بين الحضارات ما لم يكن هناك حوار جاد بين الثقافات والأديان لجميع شعوب العالم.**

*- ولا يمكن أن ننكر أيضا بعض المحاولات الجادة التي قام بها بعض مفكرينا في الثقافة العربية والإسلامية، وخاصة تلك التي انطلقت في تحليلها لهذا المشكلة من النصوص الدينية(القرآن والسنة النبوية)، ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر، المفكر الجزائري (مالك بن نبي1905-1973)، المفتي والخطيب الفلسطيني(عكرمة صبري 1939-)، المفكر ذو أصول مصرية (طارق رمضان1962-).

وما يهمنا في هذه الورقة العلمية شخصية (روجيه غارودي) الفيلسوف الفرنسي الذي يقال عنه أن معه اتضحت معالم هذا المشروع العالمي، وأن مشروعه الفكري حولها أصبح بمثابة نظرية في السياسة، في الدين، في الاقتصاد، وفي الثقافة أيضا. والأبعد من ذلك – إلى شدة الغرابة– أن بدايات وإرهاصات المشروع ارتبط بسبب شخصي (إسلامه سنة 1982 ورحالاته الطويلة ومختلفة الأماكن التي لم تترك أي قارة على حسب قوله وتأثره بالفكر الشرقي أيضا)، ومن جهة أخرى دعا إلى إعادة النظر في ما يسمى بالتفوق الغربي (من حيث التقنية والعسكرية) التي يراها فكرة استعمارية ومحاولة طمس حقيقة نشأة أوروبا من قبل المؤرخ الغربي الكلاسيكي والحديث .

هذه المواقف في العموم جعلته يضع لنا كتاب أساسي حول هذا الموضوع– والذي من خلاله سنتوسع في أفكار مشروعه– بعنوان(في سبيل حوار الحضارات).

وعليه انطلاقا من كل ما سبق، وتمهيدا لتقديم قراءة حول كتابه سابق الذكر، يمكن طرح التساؤل التالي: **إلى أي مدى يمكن اعتبار أن مشروع روجيه غارودي حول فلسفة الحضارة مشروعا قابلا للتجسد الفعلي في ظل ما يشهده العالم من تحديّات كثيرة أرهقت الإنسان المعاصر في مجابهتها والتأقلم معها؟. أو بعبارة أخرى: كيف يمكننا التأسيس لحوار حقيقي بين الحضارات المختلفة؟، ثم لماذا فشلت كل المحاولات من أجل حوار للحضارات؟.**

1/الجانب الشكلي:

–عنوان الكتاب: في سبيل حوار الحضارات pour un dialogue des civilisations

– المؤلف: روجيه غارودي Roger Garaudy

– تاريخ التأليف: 1977

-الهدف من القراءة: نهدف من خلال قراءتنا لكتاب "في سبيل حوار الحضارات" إلى التعريف بموقف "روجيه غارودي" من إشكالية حوار الحضارات التي طُرِحت في القرن العشرين وما بعده، حيث يتبنّى الدعوة للحوار بين الحضارات ودافَع عن موقفه بمنطق شديد التماسك وبخطاب موثّق بالشهادات والوقائع والحقائق، حيث دعا إلى ضرورة استئناف حوار حضارات الشرق والغرب من أجل وضع حد لحوار الذات الغربي (المركزية الغربية) الانتقادي الذي يركّز على الأنا ويرفض الآخر أو يحتقره.

كما نهدف من خلال قراءتنا هذه إلى التعريف بموقف "غارودي" الذي يعدّ أحد أهم المفكرين الغربيين الذين عاشوا في فضاء الحضارة الغربية وتعرّفوا إلى ثقافة الغرب من الداخل، فضلا عن معرفته العميقة بالحضارات الشرقية من خلال دراسته ومُعايشته الموضوعية لها، وبالتالي فإنّه يحاول أن يقدّم دراسة قيّمة تنطلق من الفكر الحضاري الإسلامي وليشمل بعدها الفكر الحضاري العالمي.

-المترجم: عادل العوّا

-الطبعة الرابعة، سنة1999.

-دار النشر: دار عويدات للنشر والطباعة- بيروت

-عدد الصفحات: 237 صفحة.

-الفهرست: يتكون الكتاب من الفصول التالية:

*مقدمة المؤلف للطبعة العربية

*المدخل- شهادة تجربة عالمية

*الفصل الأول- بلد الغسق وأساطيره «عقدة ماراثون»

التقليد الإغريقي– التقليد الروماني– التقليد المسيحي

*الفصل الثاني– الغرب عَرَض

*الفصل الثالث– الفرص المفقودة

*الفصل الرابع– الأبعاد المطلوبة مجددا

عروق التنين– جعل اللامرئي مرئيا– كل الفنون تؤدي إلى المسجد، والمسجد إلى الصلاة

*الفصل الخامس– المشروع الكوني

– اللقاءات القديمة – الجماعات الأفريقية– ميثاق الجزائر– «ساتيا غراها» غاندي– التربية في نظر باولو فريري ولاهوتيي التحرر– الثورة الثقافية الصينية.

*خاتمة– الحلف الثالث

–الإشكالية: **هل المقومات التي أرتكز عليها المشروع الحضاري الغارودي جديرة أن تبلور حوار حضاري فعلي بين ثقافات الشعوب لأمد طويل في فترة القرن الواحد والعشرين؟.**

2/تحليل مضمون الكتاب:

أ– الإطار الفكري العام للكتاب: روجيه غارودي Roger Garaudy أو "رجاء غارودي" (1913–2012) هو فيلسوف وكاتب فرنسي اعتنق الإسلام سنة 1982 بعد رحلة طويلة ومعاناة كبيرة؛ ولد لأمّ كاثوليكية وأب ملحد، واعتنق البروتستانتية وهو في سن الرابعة عشرة، حيث درس في كل من جامعة "مرسيليا" وجامعة "إيكس أون بروفانس"، وعيّن أستاذا للفلسفة سنة 1937 وانضمّ إلى صفوف الحزب الشيوعي، وقد نال جائزة الملك فيصل العالمية

سنة 1985 عن خدمة الإسلام ولدفاعه عن القضية الفلسطينية، كما حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة قونية في تركيا سنة 1995.

لقد ألّف "غارودي" العديد من الكتب من أهمها نذكر: آفاق الإنسان 1956، أسئلة موجّهة إلى سارتر 1960، واقعية بلا ضفاف. نداء إلى الأحياء 1979، ماركسية القرن العشرين 1966، في سبيل نموذج وطني للاشتراكية 1968. منعطف الاشتراكية الكبير 1969، البديل 1972. **حوار الحضارات 1977**، وعود الإسلام 1983، لماذا أسلمت؟ نصف قرن من البحث عن الحقيقة 1983، فلسطين أرض الرسالات السماوية 1991، وغيرها من الكتب المهمة. كما قام "غارودي" بالتعاون مع مسؤول منظمة اليونسكو بتأسيس "**المعهد الدولي لحوار الحضارات" سنة 1976**[1] بهدف **إبراز دور البلاد غير الغربية وإسهامها في الثقافة العالمية حتى ستوقف الحوار ذو البعد الواحد من جانب الغرب**، الذي يقوم على وهم وعقدة التفوّق عند الإنسان الغربي.

لقد كان "غارودي" على عداء دائم مع الإمبريالية والرأسمالية وبالذات مع أمريكا، وبعد مجازر صبرا وشاتيلا في لبنان أصدر بيانا احتلّ الصفحة الثانية عشر من عدد 17 حزيران 1982 من جريدة اللوموند الفرنسية بعنوان: "معنى العدوان الإسرائيلي بعد مجازر لبنان"2، وقد كان هذا بداية صدامه مع المنظمات الصهيونية التي شنّت حملة ضده في فرنسا والعالم، وفي سنة 1998 حكمت محكمة فرنسية3 على "غارودي" بتهمة التشكيك في محرقة اليهود في كتابه

[1] روجيه غارودي، لماذا أسلمت؟ (نصف قرن من البحث عن الحقيقة)، دراسة أعدها: محمد عثمان الخشت، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، (د.ت)، ص 58.

[2] المصدر نفسه، ص 81.

[3] - روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، تر: محمد هضام، تق: محمد حسنين هيكل، دار الشروق، ط4، القاهرة، 2002، ص 201.

"الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل"[1]، حيث شكك في الأرقام الشائعة حول إبادة يهود أوروبا في غرف الغاز على أيدي النازيين.

ب- من أجل فهم مضمون الكتاب:

*- الفصل الأول: في هذا الفصل حاول أن يبين غارودي حقيقة حكاية (الغرب) واعتبرها حكاية مزيفة نوع ما، لأنها لم تؤلف على الحقيقة الموضوعية لنشأة أوروبا، حيث أن بعض المؤرخين الغربيين سواء كانوا كلاسيكيين أو محدثين، الذين كان لهم نصيب في تزوير حقائق تاريخية حولها التراث الأوروبي، فقد ربطوا نشأته بمصادر غربية وأهملوا المصادر اللاغربية (كالحضارات الشرقية القديمة بمختلف ثقافاتها ودياناتها)، وليوضح ذلك أستعرض في هذا الفصل ثلاث محطات تاريخية وكشف الغطاء عن بعض الحقائق فيها وهي: المرحلة الإغريقية، المرحلة الرومانية،المرحلة المسيحية (كمؤسسة دينية/سياسية).

*- الفصل الثاني: الغرب عَرَض

يذهب "روجيه غارودي" في الفصل الثاني من كتاب "في سبيل حوار الحضارات" إلى أنّ النهضة الأوروبية ليست معجزة؛ حيث تحوّلت فيها العلاقات التي تربط بين الإنسان والله، والعلاقة التي تربط الإنسان بالإنسان، وأخيرا العلاقة التي تربط الإنسان بالطبيعة، فالإنسان في عصر النهضة لم يعُد راضخًا لِما يُمليه عليه الإيمان بل أصبحت علاقته بالله قائمة على الأسئلة وطرح الإشكاليات المصيرية، أما علاقة الإنسان بالإنسان فقد أصبحت تحكمها النزعة الفردانية القائمة على السيطرة وحبّ الربح والرغبة في المنفعة، في حين أنّ العلاقة بين الإنسان والطبيعة تحولت بفضل التقدّم التقني والتكنولوجي، حيث أصبح الإنسان مسيطرًا على الطبيعة؛ وكلّ هذه القيم الجديدة تولّدت عنها نتيجتين أساسيتين

[1]- روجيه غارودي، هذه وصيتي للقرن 21 : حوارات مع وقائع جلسات محاكمة غارودي، إعداد: شاكر نوري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2007، ص 113 وما بعدها.

هما: الرأسمالية والاستعمار، وذلك من أجل بلوغ هدف واحد هو إنكار وتهديم كلّ الحضارات اللّاغربية ومن ثمّ سيادة النموذج الغربي فقط وسيطرته.

يؤكد "غارودي" بأنّ إنسان عصر النهضة الأوروبية اهتم بثلاثة مواضيع رئيسية هي:

تقديس وتمجيد العقل: من أجل الربح الاقتصادي (في حين أضاف منذ سنة 1968 الرقص والأعياد كقيمتين مهمتين بالإضافة إلى الشعر والفن والإبداع).

تقديس العقل: لأنّ العقل بإمكانه حلّ جميع المشكلات التي تعترض الإنسان، وأنّ كل مشكلة لا يمكن حلّها عقلانيًا فهي مشكلة ميتافيزيقية زائفة ليست ذات معنى.

تقديس الكمّ: ولهذا فإنّ حضارة عصر النهضة ترغب في كلّ ما هو كمّي وتقني فقط، فتصنع الأسلحة النووية والطائرات والسيارات بكميات ضخمة، من أجل السيطرة على غيرها ولا تُراعي الكيف (الأمور الروحية)، لأنّ هدفها اقتصادي بالأساس.

وهذه المعايير الثلاثة هي التي تقيس بها الحضارة الغربية نموّ وتطور الحضارة، وتطبّقها على غيرها من الحضارات فتصنّف البلدان إلى:

-بلدان متطورة - -بلدان نامية - -بلدان في طور النمو - -بلدان متخلّفة (العالم الثالث).

حتى تتحكّم فيها وتستعمرها وتنهب خيراتها وثرواتها.

ونظرًا للهوّة الكبيرة بين الغرب وغيرهم من الحضارات، ووفقًا لهذه المعايير التي يتمّ استخدامها للمقارنة، فإن الدول الغربية لا تترك مجالا للحوار بين الحضارات ولا لتبادل الثقافات، لأنه لا يوجد توازن اقتصادي بين الحضارة الغربية

والدول المتخلّفة، وهذا الرفض جاء نتيجة للاستغلال المفروض على هذه الدول من طرف الغرب، الذي يعتمد على الرأسمالية كنظام اقتصادي يقيس به مدى نسبة تقدم البلدان أو تخلّفها.

يرى "روجيه غارودي" أنّ النظام الرأسمالي تطور خلال مجموعة مراحل هي:

إبادة الهنود إبادة جماعية: فمن خلال إبادة الهنود في أمريكا برهن المجتمع الغربي على جشعه وطمعه الذي يستند على الربح والسيطرة، كما استفاد من الاختراعات الصينية والعربية مثل: السفن، البوصلة، الأسلحة وغيرها، واستخدمها للسيطرة على غيره من البلدان وسرقة ثرواتهم كالاستيلاء على الذهب والعاج الإفريقي والقطن الهندي.

نخاسة العبيد السود: ونتيجة لِما سبق فإنّ تخلّف البلدان الإفريقية كان سبب الاستغلال الغربي لمواردها وثرواتها؛ حيث نتج عنه مجاعات كبرى في إفريقيا والهند مثلا، كما تقهقر الاقتصاد الإفريقي بسبب نخاسة العبيد السود الذي جاء نتيجة لإبادة الهنود الحمر، فبعد قتل جميع الهنود أصبحت أمريكا تفتقد إلى اليد العاملة، مما أدى بها إلى جلب العبيد السود إلى أمريكا من أجل العمل مقابل تقديم بعض السلع لبلدانهم، وهو من أشدّ أنواع الاستغلال دناءة.

الثورة الاقتصادية وإلغاء الرقّ: فقد أُلغي الرقّ لأسباب اقتصادية وليس لأسباب أخلاقية؛ حيث أعلن الدستور الأمريكي سنة 1776 أنّ الناس جميعا خلقوا أحرارً، كما أكّدت الثورة الفرنسية أنّ جميع الناس متساوون في الحقوق، وهذا الإلغاء لنظام الرقّ جاء نتيجة للثورة الصناعية في أوروبا، فبد انتشار التقنية الجديدة لم يعُد يُفرض على العبيد الإكراه الجسدي بل أصبحت تربط العامل بالخوف الاقتصادي؛ أي فقدان مصدر قوته وقوت أسرته إذا لم يعمل، وبعد انتشار التقنية ونجاح الثورة الصناعية لم تعُد أوروبا بحاجة إلى العبيد السود وأصبح يتمّ استغلالهم داخل إفريقيا.

الحركات الاستعمارية: بعد التفوق العسكري الذي عرفته أوروبا في القرن 19 م وتطويرها للأسلحة والمدافع، اتّجهت إلى استعمار الشعوب المتخلّفة في نظرها، أو بالأحرى من أجل استغلال مواردها وثرواتها الاقتصادية ونهبها، مستندة إلى مجموعة من الحجج نذكر منها:

أ–الحجة الاقتصادية: من خلال تقديم العمل والسكن وزيادة السكان ورأس المال ونشر المدنية والثقافة والأخلاق والدين في البلدان المتخلفة.

ب–الحجة الإنسانية: أي أن الشعوب المتخلفة لها حق لدى الشعوب المتقدّمة يتمثّل في مساعدتها على بناء حضارتها وتعميرها.

ج–الحجة السياسية: مثل السياسة الاستعمارية الفرنسية التي تؤكد على ضرورة التوسع الاستعماري من أجل خدمة مصالحها، ولهذا استعمرت العديد من الدول مثل: الجزائر وتونس ومالي ومدغشقر وغيرهم.

استغلال بلدان العالم الثالث اقتصاديا: على الرغم من استقلال العديد من الدول التي كانت واقعة في الاستعمار، إلا أنها بقيت رازِحة تحت سيطرة الدول المستعمِرة، التي ظلّت تنهبها اقتصاديا خاصة في مجال النفط، حيث قامت الرأسمالية الغربية بإغراق هذه الدول المتخلّفة في الديون التي تقوم بتسديدها من خلال ثرواتها وبالتالي تبقى دوما تحت سيطرتها، وهو نوع جديد من الاستعمار غير المباشر، يكون فيه الاستقلال سياسيًّا فقط أما اقتصاديًّا فتبقى تابعة للبلد المستعمِر.

يصل "روجيه غارودي" إلى أنّ الغرب من خلال الاستعمار والرأسمالية تبنّى سلطة تقوم على السيطرة والربح ومحو ثقافات وحضارات الشعوب المُخالفة له، وبالتالي أغلق كلّ محاولة للحوار بين الحضارات، ولهذا فإنّ "غارودي" يهدف إلى مطلب "حوار الحضارات" من أجل بناء نظام عالمي جديد أساسه الإنسانية والمساواة بين الشعوب جميعا، بهدف القضاء على سيطرة الثقافة الغربية وتسلّطها.

*– الفصل الثالث: الفرص المفقودة

في هذا الفصل يحاول "روجيه غارودي" أن يبحث في الفُرص المفقودةالتي كان بإمكانها أن تؤسّس لحوار حقيقي بين الحضارات، لولا نَفْيها وتهديمها من طرف الحضارة الغربية حتى تبسط سيطرتها على العالم ككل، حيث يطلق عليها اسم "المجتمع الفاوستي" نسبة إلى "فاوست"[1]، ومن بين الحضارات التي تمّ هدمها نذكر:

إبادة ثقافة "الإزتك" وثقافة "المايا" عن طريق "هيرمان كورتز"، ثمّ إبادة وحرق "ميراندا" عن طريق الأسقف "دييغو دولاندا"، ثمّ تمّت إبادة هذه الحضارة وفنونها عن طريق الإحتلالَيْن الاسباني والبرتغالي للمكسيك وهذين نموذجين فقط من نماذج الفُرص المفقودة للحوار بين الحضارات، لأنّ حضارة المايا كانت تتميّز بالفنّ والنحت والعمران ولولا إبادتها واحراقها لكانت اليوم من أهمّ الحضارات البشرية على الإطلاق.

الإساءة إلى سمعة الحضارة العربية من خلال وصف توسّعها وفتوحاتها بتدفّق الهمجيّة، غير أنها في الحقيقة ليست همجية، وأنّ ما رسّخ تفوّقها على البلدان التي فتحتها هو قوّة حضارتها التي تتميّز بنظام اجتماعي واقتصادي متماسك وجديد يستند إلى القرآن في أساسه، عكس النظام الإقطاعي الذي كانت تتّبعه إسبانيا مثلا أثناء ما يُطلق عيله "غزو العرب لإسبانيا"، وقد ساهمت الحضارة العربية في تطور الثقافة الغربية من خلال العلم العربي وكليات الطب والرياضيات وغيرها من العلوم كالجغرافيا والفلك والكيمياء والصيدلة، والتي كان الغرب يجهلها وتعلّمها من الحضارة العربية، كما تميّزوا بصناعات النسيج والجلد والسفن، لذا فلا يجوز وصفها بالبربرية والهمجية لأنها هي التي ساهمت في النهضة الغربية من خلال تأثير حضارتها على لغرب.

احتقار العلم الصيني يعدّ ثالث فرصة مفقودة للحوار الحقيقي بين الحضارات، في حين أنّ الفكر الصيني والتقنية الصينية في العديد من المجالات كالرياضيات والميكانيك والمنطق وغيرها، فسبقت بقرون عديدة ما توصّل إليه العلم

1- كريستوفر مارلو، مأساة دكتور فاوستس، تر: عبد الواحد لؤلؤة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط1، الكويت، 2013.

الغربي، كما ساهمت بالعديد من الابتكارات والاختراعات المفيدة للإنسان، والتي تمّ إنكارها وهدمها واحتقارها، وبالتالي كانت خسارة كبيرة للشعوب ككلّ.

احتقار الحضارة الهندية التي تزخر بالعديد من المميزات والتي بإمكانها تغيير نظرتنا للعالم والوجود من خلال قراءة الكتب الهندية القديمة المليئة بالحِكم والمواعظ العظيمة.

ومن هنا فقد حان الوقت لوضع حدّ للمركزية الغربية التي توجّه جميع الحضارات وفقا لمنظورها الخاص، والذي يفرض على الجميع الخضوع لمعاييره هو فقط دون غيرها من المعايير، لأنّ الحوار الحقيقي مع الحضارات الأخرى يفرض نبذ السيطرة وضرورة التنازلعلى النظرة الاستغلالية التي ترى بأنّ الغرب هو المركز وهو الأساس، وكلّ ما عداه فإنه متخلّف وهامشي.

*- الفصل الرابع: الأبعاد المطلوبة مجددا

في الفصل الرابع من الكتاب يحاول "روجيه غارودي" إرساء معايير جديدة تؤسس للحوار بين الحضارات، إذ يرفض النظرة التي جاء بها كل من "هيرودوت" و"أرسطو" التي تزعم أنّ الأوروبيين أحرار ويتذوّقون الديمقراطية في حين أنّ غيرهم من الشعوب وخاصة الآسيوية فإنها في أصلها خانعة وخاضعة وراضخة للاستبداد، كما يرفض نظرية القرون الوسطى التي تفرّق بين المتمدّن والبربري، التي اكتسبت بُعدا دينيا فاعتبرت أنّ الأوروبيون متمدّنون وأنّ غيرهم بربري، وهنا يقدّم مثالا عن التسامح الإسلامي الذي يجلّ عيسى عليه السلام في حين أنّ "دانتي" صنّف النبي محمد وأتباعه في الدرك الأسفل من الجحيم، إلا أنّ هذه الصورة التي حملها الغربيون بدأت تتغير مع مفكرين وفلاسفة آخرين فيما بعد، أثنوا على دور الحضارة الآسيوية وتأثيرها على الغربيين في كل المجالات وخاصة في المجال الفني، وهنا بدأت الإرهاصات الأولى لحوار الحضارات، ثم جاءت محاولات أخرى لفهم الشرق مثل كتب "غوته" و"نوفاليس"،

و"همبولت"، و"دولاكروا" وغيرهم للتأكيد على قيمة الشرق وإبداعاته من خلال المطالبة بالتوحيد بين الشرق والغرب والقضاء على المركزية الأوروبية.

يسعى حوار الحضارات عند "روجيه غارودي" إلى إقامة علاقات جديدة مع العالم ومع سائر البشر من أجل صناعة مستقبل مشترك يجمع بين جميع الحضارات المتمايزة والمختلفة؛ وهذا ما انتبه له الغربيون من خلال رؤيتهم الجديدة للإنسان، حيث حاولوا إعادة تعويض الفُرص المفقودة لإقامة حوار حقيقي مع الثقافات اللاّغربية، والتي تمّت عبر مراحل كما يلي:

عروق التنين: يبدأ "روجيه غارودي" بما استطاع أن يعرفه الأوروبيون عن "الصين" و"اليابان" وبما اعترفوا به من عظمة لهاتين الحضارتين؛ فالفن الصيني قبل مئات السنين كان يهتم بالكون والطبيعة باعتبارهما كُلاًّ، وكيفية انصهار الإنسان مع هذا الكل، فمن خلال التأمل والحدس يمكن أن يتجسد الإنسان ويحلّ في الطبيعة، وهو ما تؤكده الديانات الصينية واليابانية مثل الطاوية والبوذية التي انطلقت من الهند، والكونفشيوسية أيضا، ويتم هذا الانحلال والاندماج في الطبيعة من خلال تحرير الإنسان من الرغبات والملذات حتى يصل إلى الخلاص ويذوب في السرمدية والأزلية، وكل هذه الأفكار يتم تجسيدها فنيًّا من خلال الرسم أو الغناء أو الرياضة، حيث يندمج الشاعر فيما يغنّيه والرسام فيما يرسمه وهو الأمر الذي نجده غائبا في أوروبا.

إن الزخارف والنقوش والرسوم الجدارية الموجودة منذ آلاف السنين دليل على قيمة الحضارتين الصينية واليابانية، وما يدلّ على هذه القيمة أكثر هو تطور الفنون في هاتين الحضارتين في العصر الحديث، خاصة في مَجالي الرسم والخط، وهي فنون رائعة ومميزة تختلف اختلافا جذريا عمّا نجده في الثقافة الغربية، وعبارة "عروق التنين" يقصد بها ذلك الفن الذي تجسّده الخطوط في المنظر الفني وتمنحه قوة وجمالا، وهذا في عصر "سونغ" في الصين.

لقد انتقل أثر الفن الشرقي إلى الغرب حين تأثر الفنانون الغربيون كثيرابالفن الصيني خاصة؛ فصناعة الفخار الأوروبية في القرن 16م قامت بمحاكاة البورسلين الصيني، كما تأثروا بالرسم اللاتناظري والأشكال التي لا محور لها، وهي أيضا ميزة أخذوها عن الفن الشرقي.

جعل اللامرئي مرئيًّا: حيث يقوم هنا "روجيه غارودي" بتقديم الفنّ الإفريقي كمثال على تميّز الحضارات اللاغربية، إلا أنّ ما يميز الحضارة الإفريقية عن غيرها من الحضارات هو اعتمادها على الرواية الشفوية؛ فلم تكن لها لغة مكتوبة ولهذا ضاع منها الكثير، كما أنها تعتمد كثيرا في فنونها على الأحجار وهو السبب الذي جعلها تضيع، ويرى "غارودي" أنّ الفن الإفريقي الوحيد المحفوظ قبل القرن 18 م هو "باندیا کارا" في بلاد "دوكون"، وهي آثار ذات صبغة دينية، بالإضافة إلى برونز "بنين" وبعض آثار حضارات "نوك" و"إيفه" القديمة، أما الآثار الحديثة فإنها ذات طابع أوروبي على الرغم من أصالتها الإفريقية، حيث تعبّر عن تاريخ القارة الإفريقية وكيفية تنظيم مجتمعاتها ونظامها السياسي، والاقتصادي والأخلاقي والفني وغيره، وهناك العديد من الباحثين في الفن الافريقي يحاولون كشف النقاب عن مكنوناته وعمّا يعبّر عنه ويريد إيصاله لنا، من أجل فهم معناه العميق وهذا بهدف إقامة حوار حقيقي مع الحضارة الإفريقية.

إنّ الفن الإفريقي عند "غارودي" يتميّز بطاقة روحية تملأ الطبيعة وتستجيب لهموم ورغبات وآمال البشر، وهي قوة لامرئية يمكن جعلها مرئية من خلال الرقص، حيث تتحول الصورة إلى إشارة؛ أي تعبّر عمّا نراه في الظاهر وتعطيه معنى، وهذه هي قيمة الفن الحقيقية التي فقدها الآن، فالفن واقع وليس مجموعة لوحات أو منحوتات نضعها في المتحف ونتأملها، ومن هنا يجب علينا الآن أن نتعلم لغة الفن الإفريقي من أجل تجريب علاقة جديدة تربط الإنسان بالإنسان وبالعالم وبالطبيعة.

كل الفنون تؤدي إلى المسجد والمسجد إلى الصلاة: في هذا العنصر يتحدث "روجيه غارودي" عن الفن الإسلامي بعدما تحدّث في العنصرين السابقين عن الفن الياباني والصيني والإفريقي؛ حيث يؤكد على قيمة الفن العربي الإسلامي بوصفه جزءً لا يتجزّأ من الحضارة العربية الإسلامية، ويرى أنّ الفن العربي ذو علاقة مباشرة بالتصوف، وهو ما تأثر به الغربيون كثيرا وخاصة تأثّرهم بالشعر الصوفي الذي يُولي أهمية كبيرة للحب.

إنّ التصوف الإسلامي يؤكد على ضرورة الابتعاد عن "الأنا" وعدم الانشغال بها من أجل الوصول إلى النّعيم، لأنّ الأنا أعظم عائق في وجه الحب الذي نصل من خلاله إلى الحقيقة الإلهية، عكس الغرب الذي يتميّز بالنزعة الفردانية التي تقصي الآخر ولا تعترف به إطلاقا، ويقدّم أمثلة على ذلك كـ: "منطق الطير" لـ "العطار"، وقصائد "الشيرازي" مثل قصيدة "ياسمينة الأحبة" و"أنّة القصبة" لـ "جلال الدين الرومي".

لقد تأثر الفلاسفة والفنانون والمفكرين الغربيين بالفنالإسلامي وخاصة بالتصوف، مثل ما كتبه "غوته" في «الديوان الشرقي–الغربي»، و"دانتي" الذي تأثر بمفهوم الجمال والحب الصوفيين، و«مجنون إيلزا» لـ "أراغون" التي استوحاها من "مجنون ليلى" لـ "امرؤ القيس".

وبالإضافة للشعر الصوفي يمثل الفن التشكيلي الإسلامي ميزة أخرى تميّز الحضارة الإسلامية، فالفن الإسلامي يرتبط بالتصور الإسلامي (القرآن) عن العالم، وكل الفنون تلتقي في المسجد الذي يختلف عن المعابد والكنائس في كونه يستجيب لوظيفته التي بُني من أجلها وهي ذكر الله، وذلك من خلال قوانين فنية رياضية وموسيقية مضبوطة، كما أنّ الفن المعماري الذي بُني به المسجد متميّز جدا مثل مسجد "ابن طولون" بالقاهرة ومسجد "الحمراء" في لغرناطة، وقد عمل الغربيون منذ القديم على انتقاص قيمة وأثر الفن الإسلامي على الفن الغربي، إلا أنّ هناك منهم من يعترف بتأثّره به مثل: "ماتيس" و"بول كلي" وغيرهم.

*– الفصل الخامس: المشروع الكوني

لكي يبرر غارودي في هذا الفصل إمكانية تحقيق حوار حضاري شامل بين كل ثقافات شعوب العالم، بل يرى ذلك أن الموقع الجغرافي والطبيعي لبعض المناطق جسّد هذا المشروع الكوني، فجاء الإنسان وصبغ عليها ثقافته الخاصة ليبلور في آخر المطاف "حضارة إنسانية بامتياز"، وهذا ما يبين في نظره العلاقة الحميمية بين الإنسان والطبيعة؛ فاللقاءات القديمة لبعض الحضارات شكّلت ملتقى إنساني عالمي من« دلتا "النيل" و"الفرات" و "دجلة"، و "الهندوس" و"الغانغ"، ومرورا بدلتا "النيل الأصفر" من الجهة الشرقية، كانت تمثل منطقة الزراعة والإخصاب [فكلها كانت تصب في الأنهار الكبرى أو ما يسمى بالنهر الخصيب] ... وأما "وادي أوردوس" مرورا بشمال "همالايا" وانتهاء بتركيا، ثم بساحل البحر المتوسط، كلهم شكّلوا ما يسمى بطريق الحرير. إضافة إلى المسالك التجارية في الطرق البحرية الكبرى: من الحضارة الصينية إلى جنوب شرق آسيا كله، وأيضا الطبل البرونزي الذي يرجع إلى حضارات الصين القديمة في "الفيتنام" مرورا بجزر "أندونسيا"،[ومنها إلى مناطق العالم] »[1].

ولم يكتف غارودي بهذا الأمر وإنما وضع مجموعة من الفرضيات لكي يؤكد على حقيقة هذا المشروع الإنساني العالمي بأنه وليد الحضارات القديمة والأقدم بكثير من "الحضارة اليونانية"، التي ادعى "الغرب"– في نظره– بأنها حضارة لا مثيل لها بين ثقافات شعوب العالم، ومنها ظهرت ما يسمى بـ "المركزية الغربية". ومن بين هذه الفرضيات نذكر ما يلي:[2]

أ– إنه لا توجد حضارة في جزيرة، وإنما الحضارة منذ أولى خطواتها تتألف من شبكة انتشار كلي.

ب– إن كل تفجير ثقافي مسبوق بتعبئة؛ أي بتقارب روافد ثقافية متعددة في نقطة متميزة.

ج– من مصائب التاريخ المكتوب العظمى، والذين كتبوه أولئك المؤرخون المنتسبون إلى بعض الثقافات والحضارات التي ترى أن مفاتيح التفوق في هذا المجال كانت حتمية ضرورية.لكن ما أفسد المشروع الإنساني هو ذاك ما كان

[1]- روجيه غارودي، مرجع سبق ذكره، ص ص 155 156.

[2]- روجيه غارودي، المرجع السابق، ص 156، ص158.

يعتقد بأن التفوق التقني والعسكري الذي كان مناقض لفكرة الثقافة الحقيقية، وعلى هذا فإن الغزوات الكبرى التي شنّها الاستعمار الأوروبي في إفريقيا وآسيا لم تكن أقل هدما وتخريبا للقيم الثقافية العليا.[1]

د- إن التاريخ الشامل لا يمكن أن يكون إلا تاريخ الإمكانات البشرية والبحث عن الأبعاد التي فقدها الإنسان خلال فرص التاريخ المفقودة، وإعادة غزوها، وليس في وسعنا أن ننتزع جبرية المستقبل إلا إذا انتزعنا جبرية التاريخ.

هـ- إن مشروع حضارة مجهّض قد يترك أثره في فرقة دينية، أو طوبائية، أو ثورة، أو أثر فني لايعقب نتيجة مباشرة، وهو بالرغم من ذلك يبلور في ذاته مشروع حضارة. يقول في هذا السياق: «إن حوار الحضارات حقيقيا ليس بجائز إلاّ إذا اعتبرت الإنسان الآخر، والثقافة الأخرى جزءا من ذاتي، يعمر كياني، ويكشف لي عما يعوزني.»[2]

ووفق هذا الفرضيات يقترح "غارودي" بعض الحلول، وهي في الحقيقة نداء منه إلى كل النخب المثقفة في عالمه الغربي وفي جميع المجالات أن تكون لديهم روح الموضوعية في تناول القضايا الإنسانية الكبرى على غرار مسألة: حوار الأديان والحضارات*، الثقافة، التسامح وغيرها...، من أجل تشييد صرح حقيقي "لحضارة إنسانية عالمية" بدون أن تكون هناك مركزية مقيتة، أو نظام إيديولوجي يدّعي "المطلقية" في الفكر والمعرفة والسياسة والثقافة والاقتصاد من أجل التحكم في العالم. وهذه المركزية في نظره تزاح من خلال "ثورة ثقافية بريئة" تحركها كل ثقافة محلية لصد كل (مرض فكري) يحاول أن ينخر جسد العلاقة بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والإنسان ذاته. لهذا يستلزم بالضرورة:

---

[1]- بتصرف: روجيه غارودي، المرجع نفسه، ص 157.

[2]- روجيه غارودي، المرجع السابق، ص158.

*- ويمكن أن نلتمس في هذه الحلول أيضا نقدا غير مباشر إلى المفكر الغربي الأمريكي " صموئيل هنتغتون" صاحب فكرة (صراع الحضارات) والتي مفادها أن « المصدر الأساسي للصراع في هذا العالم الجديد يقوم على أساس ثقافي والنوع البشري لهذه الثقافة،... وستكون خطوط الصدع بين الحضارات خطوط المعركة في المستقبل» فهذه الفكرة وإن بدت ظاهريا أمر عادي إلاّ أن كل الدارسين لفكره اعتبروها فكرة تؤسس للمركزية الغربية وجعل الأنا الغربية متفوقة على جميع الثقافات زمكانيا.

*– دراسة والاهتمام بالثقافات الأخرى إلى جانب الثقافة الغربية (في المدارس والجامعات وتعميمها تدريجيا على فئات المجتمع الغربي،حتى يكون هناك توازن معرفي وتواضع فكري في استجلاء الحقائق التاريخية على وجه الخصوص.

*– عدم التركيز أكثر على تعليم العلوم والتقنيات، وإهمال جانب مبحث الجمال [كمعيار اتيقي يساهم في بناء هذا المشروع الكوني] الذي يهذّب النفس الإنسانية.

*– التوظيف الإيجابي لعملية التأريخ الحقيقي والفعلي، من أجل بناء المستقبل واستشرافه لتوضيح الخطوط العريضة للأهداف والغايات.[1]

وينوّه غارودي أيضا على أهمية السينما – في شقّها الإيجابي– الغربية وشتى الفنون أن على أهلها المساهمة في بث ونشر الآثار الإنسانية العظمى سواء كانت غربية أو لاغربية، حتى يتحقق ولو نسبيا الانقلاب الكبير في منظور الثقافة العالمية. «لا من أجل الانقلاب وإنكار كلي للثقافة الغربية، ولكن من أجل إسباغ الصبغة النسبية عليها، ومن أجل البرهان على أننا لن نتوصل إلى حل المشكلات الرهيبة التي لا تزال تطرحها بالانطلاق منها وحدها.»[2]

وينتقل بنا أيضا إلى مجال "السياسة"و"الاقتصاد" و"المعرفة العلمية"، والذي يرى بأنهم أكثر المجالات الحساسة في داخل كل ثقافة، فإن التفريط والإفراط فيهم يؤدي إلى لا محالة لإجهاض المشروع الإنساني الحقيقي على بكرة أبيه. وهذا ما تأسف منه داخل ثقافته الغربية حينما لم يحسن السياسيين والاقتصاديين والعلماء الغرب أيضا في التصّرف العقلاني– الاتيقي في معالجة مسائل: الديمقراطية، المسؤولية، التحليل العلمي، وحقيقة كل من النظام الاشتراكي والرأسمالي.

[1]- بتصرف: روجيه غارودي، المرجع السابق، ص159.

[2]- روجيه غارودي، المرجع نفسه، ص161 .

ففي الممارسة السياسية يؤكد على ضرورة« الانتقال من ديمقراطية تمثيلية إلى ديمقراطية المشارك التي لا تشد إلى أساس الندب للسلطة، بل الإسهام في جميع المستويات»[1] ، أما في الجانب العلمي الممارساتي، فيرى إن «عناصر التحليل العلمي، عندما ننظر إليه على إنفراد، تقود إلى تصلب العلم ذاته من جراء الوثوقية وفقدان العلوم الأساس الإنساني والغائية الإنسانية [يقدم هنا مثال عن أوغست كونت الذي زعم أن في وسعه عزل بعض الوقائع ليعيد ربطها بعدئذ بعلاقة السبب بالنتيجة]»[2].

وفي الجانب الاقتصاد السياسي نجد أن غارودي قد أعاب على النظامين الاشتراكي والرأسمالي اللذان يشتركان في لغة واحدة وهي لغة "المذهبية العلمية" بقوله:« إن لا إنسانية الرأسمالية والديكتاتورية السوفياتية هما وجهان لميدالية واحدة»[3]، وهذا الحكم الشديد لهما جاء نتيجة الانفصام الحاد بين ثنائيتي (المادة والروح) وفقدان شاعرية الإنسان الغربي فأصبح مجرد كائن ذو بعد واحد – في حد تعبير هاربرت ماركيوز – بسبب تغلل العلم والتقنية واضمحلال الجانب الروحي داخل الثقافة الغربية، بل أمتد هذا المرض إلى لبعض الثقافات شعوب العالم سواء اقتفت آثار الرأسمالية أو الاشتراكية في نظامي الاقتصادي والسياسي معا، ونذكر على وجه الخصوص بلدان(إفريقيا، وأمريكا اللاتينية) حينما شوّهت ثقافتهم المحلية باسم التقدم والتحرر.

وعليه، وضمن هذا الكتاب الأساسي لهذا الموضوع، دعا إلى "ثورة خلاّقة" نهضوية إنمائية، من أجل تأسيس حضارات ثقافية ذو منبع روحي منفتح[هنا يشيد بالثقافة الهندية التي قامت على جانب روحي مستمد من ثقافة محلية جذورها ممتدة في العصور القديمة لهذا البلد] يعطي للإنسان قيمته من الدرجة الأولى. لأن في نظره كل من يبقى

[1]- روجيه غارودي، المرجع نفسه، ص162.

[2]- روجيه غارودي، المرجع السابق، ص163.

[3]- روجيه غارودي، المرجع نفسه، ص168.

متمسك بهذه الشاعرية الثورية النبيلة ستكون « إرادة التضحية قادرة على التفوق على قوة القنابل التي تلقيها طائرات عملاقة وعلى التغلب على أقوى الجيوش سلاحا في العالم.»[1]

ولكي يعطي كلامه أكثر واقعية، أختار نماذج من كل قارة وكيف جسّدت هذه النماذج حوار الحضارات الحقيقي من خلال إرادة التضحية النابعة من إيمان متجذر من الثقافة المحلية[ولا يقول اعتقاد، لأن في رأيه هذا المصطلح الأخير يشير نوع ما إلى الدوغمائية الفكرية] وعمل يجسّد هذا الإيمان على أرض الواقع؛ ففي إفريقيا يقدم أنموذج كل (تنزانيا والجزائر) وفي آسيا يستعرض تجربة (الهند والصين الشعبية)، وفي أمريكا اللاتينية يقف على تجارب روحية رائعة من (البرازيل وبوليفيا).

1- الجماعية الإفريقية : "روح الجماعة" في تنزانيا.

ويدخل غارودي في صلب الثقافات الإفريقية ليحاول البحث عن الأبعاد الأخرى الحقيقية للاشتراكية غير الاشتراكية التي ترعرعت – بشكل أو بآخر – في الثقافة الأوروبية. فيختار الثقافة "التنزانية" كأنموذج إفريقي قام على اشتراكية خاصة تعود إلى الثقافة التقليدية المحلية؛ حيث أن ملكية الأرض عندهم هي ملكية مشتركة وجماعية، وتسمى في اللهجة السواحلية باسم "روح الجماعة"، والتي تقوم على المبادئ الثلاثة:

– الاحترام المتبادل: على خلاف الفردية الأوروبية، يجب أن يعي كل امرئ أنه جزء من الآخر (النمو المتبادل).

– نظام التملك: إن جميع الخيرات الحيوية هي ملكية مشتركة، أن أحدا لا يمكن أن يخجل من بؤسه أمام غنى الآخر، ولا يمكن أن يخجل إنسان من ثروته أمام بؤس الآخر.

– العمل وهو واجب على الجميع.[2]

[1] - روجيه غارودي، المرجع نفسه، ص168.

[2] - روجيه غارودي، المرجع السابق، ص ص 171 172 .

وعلى هذه المبادئ التي تقوم عليها التجربة التنزانية كثقافة جماعية تقليدية، يرى غارودي بهذا الشكل تتحقق التنمية المستقلة ذاتيا، التنمية النابعة من الذات، من شعب يعتمد بالدرجة الأولى على قواه الخاصة ليبني مستقبله ويبني الاشتراكية*،ومن جهة أخرى يؤكد أن على«التربية لها دور أساسي في تحقيق هذه التنمية،ولكن ينبغي أن تنطلق من المنطلق ذاته (...) فالتعليم ينبغي أن يتصل بالحياة العملية مباشرة مثل علم الحياة...»[1].

لكن تصور الاشتراكية بهذا الشكل– في نظر غارودي– والذي يقوم على التحويل الاقتصادي وتحويل العلاقات الاجتماعية والتربوية ينبغي أن لا تفهم بأنها ذات فكرة "لاهوتية جبرية" على الإنسان أن يخضع لها. ولكن عليه أن تفهم ويحكم عليها حسب الزمان والمكان التي ظهرت فيه، فالكتب حول "الاشتراكية" كتبها بشر ويفسرها بشر، ويدعم كلامه هذا بفقرة اقتبسها من كلام السياسي التنزاني "بوليوس نيريري"1922–1999 حينما قال: « إذا كانت عبارة الاشتراكية العلمية ذات معنى فإنها تدلّ على أن الأهداف اشتراكية وإننا نطبّق لتحقيقها طرائق علمية (...) إن فكرة مساواة البشر قاطبة أمام الله، وهي خاصة بجميع الديانات الإبراهيمية، وبضروب حكمة الشرق، هي كذلك مبدأ الاشتراكية، وهذه الفكرة هي الفكرة الضرورية وحدها، مهما يكن أساسها دينيا أو غير ديني، التي يمكننا تقديمها. إن الديمقراطية والاشتراكية إيمان، إيمان بالإنسان، بكل إنسان، ومن لا يتحلى بهذا الإيمان فإنه عدو الديمقراطية وعدو الاشتراكية(...) علينا أن نتعلم من الجماعيات الشعبية في "الصين"، ومن نظام تربية الكبار في "كوبا"، ومن "كوريا الشمالية"...الخ، ولكن أيضا من التنظيم التعاوني في" الدانمارك" وفي" السويد".»[2]

ومن خلال هذا الكلام يستنتج غارودي بأن فكرة "الجماعية" على هذا المنوال، تؤسس المعنى الحقيقي لحوار الحضارات؛ فكل ثقافة معينة سواء كانت أوروبية أو لا أوروبية تنشئ "اشتراكية محلية" وتنطلق من مبادئها الخاصة،

*- يتبين من هذا الكلام أن غارودي يشير إلى فكرة "الرأسمالية" – غير نفعية سلبية واستغلالية- داخل اشتراكية جماعية. وهذه الفكرة يتوسع في شرحها في الصفحتين 174 و175 .

[1]- روجيه غارودي، المرجع السابق، ص175،173.

[2]- نقلا عن: روجيه غارودي، المرجع نفسه، ص ص 175 176 .

عندما تأخذ بأسباب القوة والعمل المنتج، وعلى محك الديمقراطية الحقيقية، حتى تكون الاشتراكية والديمقراطية عاملان يخدمان الإنسان، إنسان الكل في الكل بدون تعدي أو سلب للحقوق والحريات الشخصية. وعليه فإن مميزات فكرة "الجماعية الحقيقية" في نظره تتمثل فيما يلي[1]:

*- إن الإنسان هو هدف كامل ذو فاعلية اجتماعية، لكل إنسان على وجه الأرض بدون تمييز عرقي أو طبقي أو حتى جنسي،

*- إن الديمقراطية ليست بالضرورة نظام أحزاب ولا برلمان؛ أي الشعب تكون له حرية مراقبة الانتخابات مراقبة ناجعة وقادرة على هذه المراقبة،

*- وفي مجتمع المؤلف من عمال (وهذا لا يعني بالضرورة من أُجراء)، إمكانية الرقابة هي الملكية العامة قد تبدو في أشكال شتى، وهدفها الأساسي هو منع الفرد أو الفئة من القدرة على السيطرة على المجتمع من خلال الاستيلاء وعلى وسائل تنمية رفاهيته.

2- ميثاق الجزائر:البعد الديني والتاريخي من وجهة أخرى لحوار الحضارات.

لقد اعتبر غارودي بأن "ميثاق الجزائر" الذي ظهر نوره مع أول مرة سنة1964 على لسان جبهة التحرير الوطني، يعدّ أيضا (تأريخيا رئيسيا) في إطار حوار الحضارات وخاصة في بعده الروحي الإسلامي، وغير المتناقض مع بعض الأفكار الاشتراكية آنذاك، حيث يبرز الميثاق دور الإسلام في مقاومة الاستعمار[كهدف أساسي تميزت به الجزائر وأغلب بلدان العالم الثالث الذي رفعت الشعار نفسه] وليبرر كلامه استدل من الميثاق الفكرة التالية« من الجلي أن الإسلام يمثل حصنا من أمنع الحصون ضد جميع محاولات سلخ الشخصية. وقد وجد الشعب الجزائري في الإسلام المناضل، الصلب، الذي تحركه روح العدالة والمساواة، وجد ملجأ في أحلك ساعات السيطرة الاستعمارية، ومن منح

[1]- روجيه غارودي، المرجع السابق، ص177،ص179.

الطاقات المعنوية، وهذه الروحانية التي صانته من اليأس وأتاحت له النصر»، ويدعّم كلامه أيضا من ميثاق الاستفتاء سنة1976 قائلا:« ليس أمام العالم الإسلامي إذا شاء التجدد إلا درب واحد: تجاوز الموقف الإصلاحي والانخراط في طريق الثورة الاجتماعية. فالثورة تتسق والمنظور التاريخي الإسلامي... وعلى الشعوب الإسلامية التي يختلط مصيرها اليوم بمصير العالم الثالث أن تعي منجزات تراثها الثقافي والروحي وتعيد تمثلها في ضوء القيم الحياة المعاصرة والتغيرات الطارئة فيها.»[1]

ومن هذه المعطيات حول ميثاق الجزائر – كرؤية جزئية يشملها على الرؤية العامة للعالم الإسلامي ككل– يرى غارودي بأن المسلم لا يمكن أن يتعلق كثيرا بالاشتراكية الغربية[وهذا ليس إنكارا لها في نظره وإنما من أجل وضعها في إطارها النسبي المحدود] ويتخلى عن مبادئ الاشتراكية التي هي متجذرة في تعاليمنا الإسلامية والمؤكدة في القرآن والسنة النبوية. حيث يضرب لنا مثال عن ذلك فيما يخص بفكرة (الزكاة) وهي بمثابة« ضريبة تتيح إعادة توزيع الثروات وتؤلف شكلا إسلاميا نوعيا للاقتسام.»[2]

3– "ساتياغراها" غاندي: المقولة الأخلاقية التي تنبع من النفس الإنسانية.

يرى غارودي أن شخصية (المهاتما غاندي) قدّمت مفهوما جديدا للسياسة بعد فلسفة السياسة الميكافيلية (نسبة إلى نيكولا ميكيافيلي) التي أسست نوع ما لفكرة "الاستقلال الذاتي" بالتحرر من أسر التفكير الدوغمائي الديني القديم في أوروبا، والتي كانت تزعم استنباط نظام المجتمعات من حقائق مطلقة. إلاّ أن في نظر غارودي بأن الغرب قوقع هذا (الاستقلال الذاتي) وحوّله مجرد "علمنة للسياسة: باعتبارها تقنية الوصول إلى سدة الحكم وسبيل البقاء فيها، ولا توجد حرية حقيقية للأفراد الذين لهم الحق بالتمتع بها."

[1]- روجيه غارودي، المرجع السابق، ص ص179 180.

[2]- روجيه غارودي، المرجع نفسه، ص 181.

ومن خلال هذا الاعتبار صرّح غارودي بأن فلسفة السياسة الغاندية هي سياسة « تقوم على فكرة العمل: التي توحّد غاية الازدهار الشخصي للفرد مع الحد الأقصى من النجوع السياسي في كفاح تحريري مثل الكفاح الذي أنجزه في الهند»[1]. فالسياسة عند غاندي أصبحت في نظره لديه عبارة عن إيمان عميق وطريقة حياة في كل فصل من فصول الحياة وليست دائرة خاصة قد يصح أن نسميها باسم السياسة، وقد وضع ثلاث عوامل لتحقيق هذا العمل النبيل في الممارسة السياسية وهي: الحقيقة، اللاعنف، والألم الشخصي المقبول قبولا حرا.

وعن هذه العوامل – في تداخلها وترابطها الوثيق– ينقل عنه قائلا:« أن الإنسان لا يستطيع بلوغ حقيقة مطلقة، ومن ثم فإنه غير مؤهل لإيقاع العقاب [ويضيف أيضا عنه قائلا] أن الموت يتطلب من الشجاعة قدرا أعظم من شجاعة الموت.»[2]، وفي هذا السياق يبين غارودي علاقة فلسفة غاندي السياسية بحوار الحضارات حينما ينقل عليه كلام يؤكد فيه أن الحقيقة الإلهية واحدة بالرغم من تعدد الديانات والتجارب الروحية في التعبير عن هذه العلاقة، حيث يقول:« إنني لا أؤمن بإلوهية "فيدا" الحصرية، إنني أؤمن بأن "التوراة" و"القرآن" و"زنداقستا" هي من وحي مثل وحي "القيدا" (...) لا سياسة دون دين[هنا يقصد الدين الشامل الحقيقي وليس كاعتقاد محاكم التفتيش في الحكومات الدينية القديمة التي كانت خادمة للسياسة الاستبدادية]» [3]

[1]- روجيه غارودي، المرجع السابق، ص 182.

[2]- روجيه غارودي، المرجع نفسه، ص ص 182 183.

[3]- روجيه غارودي، المرجع نفسه، ص 183.

ويمكن أن نلخّص مقولة "ساتياغراها" حسب ما قدمه غارودي في المخطط التالي:

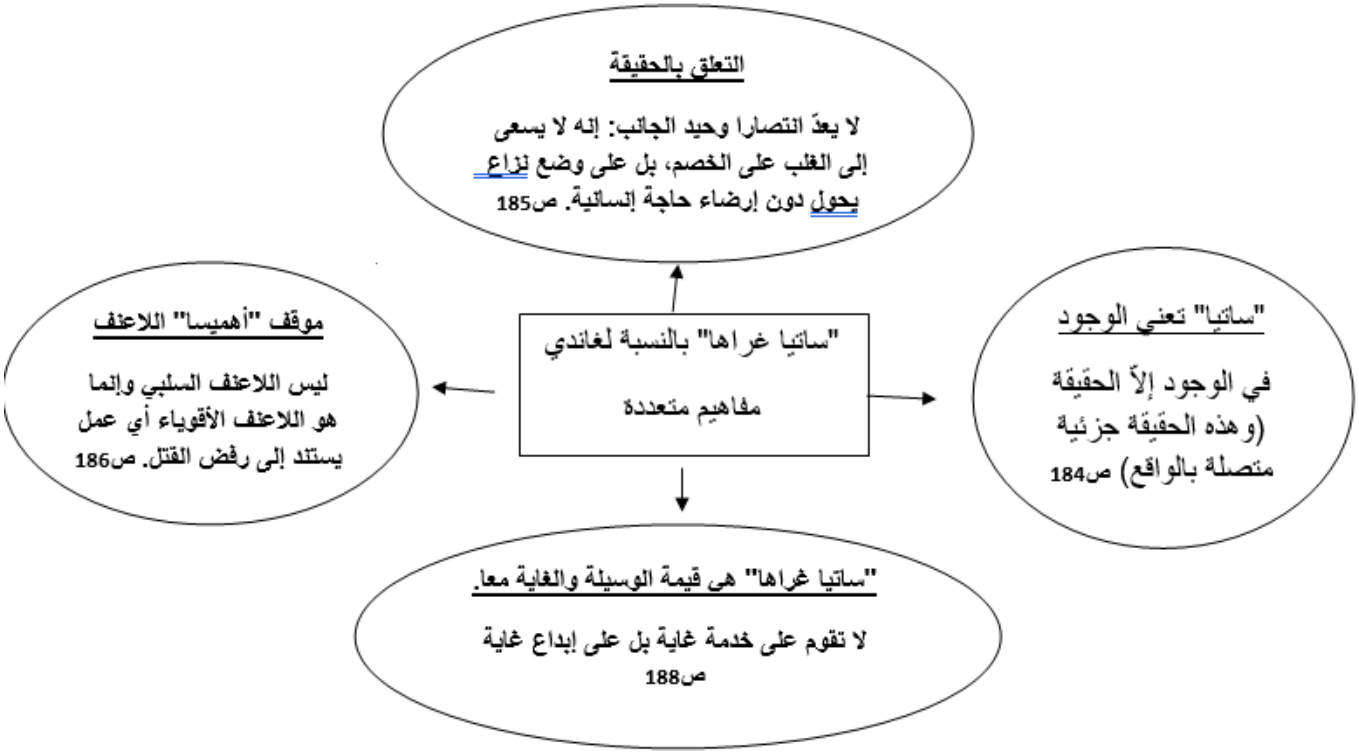

ومن أهم النتائج التي توصل إليها غارودي في عرضه لفلسفة غاندي السياسية والتي تقوم على معنى "إتيقي" بامتياز، ويمكن اعتبارها نظرية جديدة في السياسة نذكر منها[1]:

– ضرورة الإيمان والتغيير الذاتي في عملية الكفاح كأول شرط فيه حتى تتحقق تلك الجدلية البناءة بين قيمة الوسيلة وقيمة الغاية.

– الغايات ليست أفكار مجردة وجاهزة وإنما هي تنشأ من طبيعة الظروف والفرضيات التي تؤلف من خلالها أفق كل عمل بنّاء، وهذا الأفق: متحرك دوما ومتجدد دوما.

[1]- روجيه غارودي، المرجع السابق، ص ص 194 195.

– التعبئة الجماهيرية لهذا النوع من الكفاح (اللاعنف) لا يقتصر فقط على ذكاء الفرد وحسب، وإنما أيضا تكون هناك عملية كيفية التمييز بين الحاجات والآمال، من خلال تحديد الشروط الضرورية والفعّالة للعمل كل فرد حتى تتوافق مع جميع الأفراد المنتمين إلى هذا الكفاح على شاكلة أناس روحانيين – روحانية يقظة وليس انتكاسية وخلوة على الذات– يستمدون روحانيتهم من ثقافة شعبية تقليدية تمتد جذورها إلى الأعماق ويعيشها الناس مباشرة.يقول غاندي في هذا السياق:« ... وليس في وسعي أن أحيا حياة دينية دون أن تطابق هويتي كل المطابقة هوية الإنسانية بأسرها، وهذا يتعذر دون الإسهام في الحياة السياسية... إني واثق بأن الله واحد فقط، وأنه الحقيقي وحده... وأن الإنسانية تؤلف كلا واحدا، وأن لها بالرغم من تعدد الأجساد، روحا واحدا... ونحن قد أقمنا ملكوت الله في السياسة أيضا.»[1]

4– التربية في نظر "باولو فيريري" ولاهوتيي التحرر: الحكمة اللاتينية.

بعدما قدّم غارودي نماذج واقعية تاريخية لحوار الحضارات في بعده الاقتصادي (فكرة الجماعية في تنزانيا) وفي بعده السياسي (ميثاق الجزائر– فلسفة غاندي)، يتطرق في هذا العنصر إلى جانب لا يقلّ أهمية على الجانبيين السابقين بل هو جوهرهما – إن صح التعبير– حيث استند من ثقافة أمريكا اللاتينية شخصيتان قدما فلسفة "ثورية تحررية" أحدهما أقام دعائهما على فكرة(التربية) وهو المربي البرازيلي "باولو فريري"1921–1997 والآخر ربطها بفكر (لاهوتي تحرري منفتح) وهو الأب البيروفي " غوستافو غوتيرز".

فأما "باولو فريري" فقد جعل من التربية رسالة سامية« تهدف إلى محو الأمية و[إصلاح] التعليم بوجه عام؛ أي رسالة توقظ الشعور الإنتقادي في نفوس الجماهير، فقد أرادها "تربية المضطهدين" واتّخذها ممارسة للحرية [وينقل عنه كلام في هذا السياق قائلا:] إن قوام التوعية يتمثل في إدراك التناقضات السياسية والاقتصادية والوقوف في وجه عناصر الاضطهاد الموجودة في الواقع.»[2]

[1]- نقلا عن: روجيه غارودي، المرجع نفسه، ص 196.

[2]- روجيه غارودي، المرجع السابق، ص ص 196 197.

أما فكرة "اللاهوت التحرري" مع (الأب كوتيرز) يشبهها غارودي بالمبدأ الماركسي حول الفلسفة، بأن اللاهوت في نظر الأب البيروفي (لا يكتفي بتفسير العالم، وإنما يسهم أيضا في تغييره). وهذا ما جعل غارودي يعتبر فلسفته "لاهوت جديد" قام على أنقاض اللاهوت التقليدي المدرسي بوصفه [أي اللاهوت الجديد] أنه« بوجه عام ينطلق من الأفعال ومن المشكلات الناشئة عن عالم التاريخ.»[1] ويقتبس غارودي كلام له ليوضح به حقيقة هذا النوع الجديد من اللاهوت والذي يؤسس لفكرة حوار الحضارات يقول:« أن على الحب إذا أراد أن يعدو كليا في وجه "الخطيئة الموضوعية" وهي لم تبق خطيئة فردية بل تاريخية خطيئة "نظام معيّن"، عليه أن يقضي بتحرير فريق من اضطهادهم، وتحرير الآخرين من ثرواتهم وسلطاتهم الطاغية، وهذه الثروات والسلطات تمثلان شكلين متلازمين في "الخطيئة الموضوعية" ذاتها.»[2].

ومن هذا المنطلق يعتبر غارودي أن فكر الأب (كوتيرز) التحرري في جانبه اللاهوتي لعب دورا كبيرا في سلسلة التحرر الفعال في أمريكا اللاتينية، والتي تحولت من "لاهوتيات التنمية" إلى " لاهوتيات التحرر". على خلاف (التنمية المزيفة) – على حد تعبيره– التي نادى بها الغرب، وهي في الأصل فكرة تنتج السيطرة واستغلال المجتمعات الضعيفة والفقيرة. ولقد عرّف الأب(كوتيرز) هذا التحرر في ثلاث مستويات مختلفة ومرتبطة فيما بينها في آن واحد:

أ– التحرر السياسي: ينطلق من وعي التعارض الأساسي بين الشعوب والطبقات المضطهدة وبين الطبقة المسيطرة.

ب– التحرر التاريخي: إن التاريخ هو بالدرجة الأولى حركة تحرير الإنسان.

[1]- روجيه غارودي، المرجع السابق، ص 198.

[2]- نقلا عن: روجيه غارودي، المرجع نفسه، ص 199.

ج- التحرر من الخطيئة: بغية الدخول في اتحاد تام مع الناس ومع الله [الخطيئة ليست فردية وحسب، بل هي جماعية وهذه هي الخطيئة الموضوعية في نظر الأب كوتيرز] يقول في هذا السياق:« إن الخلق هو أول فعل من أفعال الخلاص، والتاريخ هو تاريخ التحرر».[1]

5- الثورة الثقافية الصينية: الثورة المثالية في عهد "ماو-تسي-تونغ"

وينتقل بنا إلى غارودي إلى ثورة ثقافية أخرى في شرق آسيا وهي "الثورة الصينية" التي ارتكزت على الاشتراكية والشيوعية كطريق حياة في الإنتاج والإبداع، وليس كعلم صارم مبني على معطيات بورجوازية غريبة. لأن في نظره بأن "الماركسية" أخرجها تلاميذ ماركس من معناها الحقيقي فأصبحت عبارة عن « اشتراكية علمية مفرغة من مقال شعري»[2]، فقد حاولت الصين – ومعها الفيتنام-بزعامة "ماو-تسي-تونغ" على خلق اشتراكية نوعية تتسم بالمبادئ الثقافية المحلية للبلد من خلال« أنها أظهرت عن عمد أن صفة الكلية والشمول لا يمكن أن تتحقق إلاّ بترسيخ الماركسية في ثقافة كل شعب»[3]، وعلى الرغم أن بعض الأفكار الغربية الرأسمالية كانت متجذرة في بعض المدن الصينية على غرار "كانتون" و"شنغهاي"، إلاّ أن زعيم الثورة الصينية (ماو) عرف كيف يغلّب كفّة الشيوعية المحلية [المتجددة والمواكبة للعصر آنذاك] على حساب الرأسمالية الأجنبية. فقد رفع شعار: (محاصرة المدينة بالريف)، وهو عبارة عن الزحف الثقافي الريفي إلى المدن حينما برهن (ماو) على أنه من « الممكن القفز فوق مرحلة الرأسمالية والانتقال مباشرة من الصين الريفية والحرفية إلى الشيوعية.»[4]

ويرى غارودي أن تحقيق هذا التآلف بين العمل اليدوي والعمل العقلي [كحفاظ على شخصية العامل الصيني الريفي وتثبته في أرضه] جاء من خلال النداء الذي نادى به (ماو) في 7 ماي1966 الذي ينصّ على « إعادة تثقيف

[1]- روجيه غارودي، المرجع نفسه، ص201..

[2] - روجيه غارودي، المرجع السابق، ص208

[3]- روجيه غارودي، المرجع نفسه، ص209

[4]- روجيه غارودي، المرجع نفسه، ص210.

الجماهير وإعادة تكوين يتوخى بالدرجة الأولى التذكير بالتكافل الأساسي في صفوف الشعب الصيني، وبالمقابل يحرص المسؤولون على جعل الجماهير تسهم في اتخاذ القرارات، وفي الإدارة وفي التجديد.»[1]

ولقد لاحظ غارودي أن الاستراتيجية التي وضعها منظّري الثورة الثقافية الصينية تقوم على محاولة التوفيق بين (النظرية الكونفوشيسية) التي لم تدم طويلا ومفادها " لابدّ من تغيير الإنسان لتغيير المجتمع"، ونظرية (القادة السوفيات) حينما رأؤوا أنه " يكفي تغيير النظام الاقتصادي والاجتماعي حتى يولد إنسان جديد" وهم بدورهم أخفقوا في ذلك. فقام الصينيون بخلق نظرية على أنقاض هذين النظريتان وهي « التجسيد الواقعي لسلوك الأفراد الاجتماعي وهذا من خلال تجاوز تراث ثلاثي كان مشؤوم على الصين سابقا:

أ- التراث التقليدي: المأثور عن البيروقراطيات وعن أنظمة التسلسل المعروف في الإمبراطورية القديمة. بمعنى مجابهة الفكرة الكونفوشيسية التي كانت تبرر الصبر والرضا عن النظام الراهن ومراتب التسلسل الاجتماعي.

ب- التراث الرأسمالي: الذي انتشر أولا في المدن الساحلية تم ليتوسع في الصين برمتها حاملا إليها الفساد (الدعارة، التجارة الغربية، المصارف المالية، الآفات الاجتماعية،...).

ج- التراث التحريفي: على الطريقة السوفياتية والتي تزعم فرض اشتراكية غربية بصورة نمطية هدفها اللحاق بالرأسمالية وتجاوزها.»[2]

ولهذا كانت الثورة الثقافية التجديدية التي قادها (ماو-تسي-تونغ) لم تكن ثورة تدغدغ فقط المشاعر والقلوب ولكن كانت ثورة بأتم الكلمة – في نظر غارودي- حيث كان (ماو) يردد القول:« سنحتاج أيضا إلى عشرات من الثورات الثقافية، وهذا من أجل صنع إنسان [سواء كان كبير، صغير، مثقف، عادي، رجل، امرأة،...] وإعادة صنعه حتى يتمكن من مناقشة المشاكل الكبرى، وكأن [هذه] الثورة مسألة شخصية.»[3]

[1]- روجيه غارودي، المرجع نفسه، ص211.

[2] - بتصرف : روجيه غارودي، المرجع السابق، ص212.

[3]- روجيه غارودي، المرجع السابق، ص214.

3- قراءة نقدية للكتاب والمكلمة له:

بعد القراءة المتأنية لفصول كتابه (في سبيل حوار الحضارات) نجد أن المفكر والفيلسوف الفرنسي "روجيه غارودي" قد وضع بصمته في إطار هذا المشروع الفكري الشائك –قديما ومعاصرا– شأنه شأن جميع المفكرين والفلاسفة عبر التاريخ الذين أبدعوا في تحليل ومناقشة ومن ثم استعراض أهم النتائج المناسبة لإمكانية تحقيق "حوار جاد للحضارات" المختلفة في ثقافاتها الدينية والفكرية والتاريخية ...، وكيف لا؟ ونجد أن المشروع الغارودي يحاول أن يؤسس حوارا متكاملا البناء يعيد بناء للعلاقة بين الإنسان والطبيعة، والإنسان والإنسان بمقومات حضارية جديدة، تكون بمثابة علاقة تفاعلية إنتاجية، لا تخضع للأنا الصغيرة التي تبنتها الثقافة الغربية أو إلى فلسفة الصراع للأقوى (في مفهوم صموئيل هنتغتون) أو اللاهوتية المتشددة بالمفهوم اليهودي (شعب الله المختار)، وإنما تكون مشروع أمل حياة تجمع ثقافات البشر ضمن بوتقة حضارة إنسانية واحدة– مع احترام الخصوصية الثقافية لكل شعب– تشكّل "حلفا ثالثا " والذي وضح معناه في قوله:« إنه سيكون إناء إنسانيا عميقا لكل واحد منا، لأنه يطلب من كل واحد اهتداء عميقا داخل ثقافته الخاصة.»[1]

لكن من المعروف إن الموضوعية لا يمكن أن تتحقق بشكل كبير وتتجسّد على أرض الواقع، وهذا ما جعل أغلب المشاريع الفكرية في هذا المضمار بما فيهم مفكرنا غارودي لم تنجح واقعيا وقد وجّهت لها انتقادات وخاصة على المستوى النظري. فمن بين المفكرين الذين حللوا وناقشو فلسفة الحضارة عند "روجيه غارودي" نذكر على سبيل المثال المفكر اللبناني"علي حرب" صاحب كتاب (الاستلاب والاسترداد) والمعروف بمنهجه التفكيكي.

بالرغم أن (حرب) أثنى على غارودي بما قدمه من أفكار وآراء أنتجت لفلسفة إنسانية – إن صح التعبير– إلاّ أن لم يمنعه من وقوعه في بعض الهفوات المعرفية والمنهجية، جعلته كشخصية جسدّ أنموذج المثقف العضوي

[1]- روجيه غارودي، المرجع السابق، ص 222.

والفيلسوف الملتزم الساعي إلى تغيير العالم. لكن على حد تعبير "علي حرب" أن غارودي لم ينتبه إلى بعض الأمور التي وظفها كمقومات أساسية لبناء حوار حضارات فعالة كان قد نبذها واعتبرها من السلبيات التي وقع فيها "الغرب"، وقد وضحّ ذلك في مقالة نشرها بمجلة "البيان" الالكترونية في 16 جويلية تحت عنوان **(روجيه غارودي ... تقلبات ومفارقات)**[1].

ويمكن أن نلخص هذه الانتقادات في النقاط الثلاثة التالية:

– يرى علي حرب أن غارودي بالرغم من تأليفاته المتنوعة ومناقشته لمواضيع كثيرة، إلاّ أنه لم يجدد في حقل الفلسفة، على عكس ما نجده لدى فلاسفة معاصرين أمثال: هنري برغسون، جون بول سارتر، برتراند راسل، ميشال فوكو، ويورغن هابرماس، ... وغيرهم من الفلاسفة الذين انتقدوا السياسة الغربية وأفكارها التي لم تعنى بالإنسان المعاصر عناية جيدة.

– أراد أن يتخلص من الإيديولوجيا إلاّ أنه وقع فيها (الإيديولوجية السياسية الماركسية)أو ما سماها بـ "الإيديولوجية النضالية".

– يرى حرب أن دخول "غارودي" للإسلام ،من زاوية آخري، يعزز النرجسية الثقافية لدى المسلمين، على نحوٍ يحول بينهم وبين الخروج من حالة العجز والتخلّف. لأن التحدي المنشود في المشروع الحضاري هو كسر النرجسية الأحادية والعقلية الإصطفائية، بابتكار صبغة حضارية تفتح خطوط التواصل بين المسلمين الذين تغرقهم حروبهم ا أهلية بالدماء، هذا هو الاستحقاق الذي نهرب منه.

[1]- على حرب، روجيه غارودي... تقلبات ومفارقات، البيان الالكترونية- الإمارات،

https://www.google.com/amp/s/www.albayan.ae/opinions/articles/2012-16-07-1689067%1.3Layout.AMPPageot=fot، تاريخ القراءة: 2020/04/09 على 15:00